نظام الدوائر وأثره السلبي في الدرس العروضي

د. بشير بديار

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة عمار ثليجي

يتناول هذا البحث نظام الدوائر الذي أبدعه الخليل ومختلف أنظمة الدوائر التي تلته. ومناقشتها وبيان أنه يمكن الاستغناء عنها لتبسيط الدرس العروضي دون المساس ببناء الخليل للبحور.

لم يكتف الخليل باشتقاق التفعيلات من بعضها بعضا بل إنّ هذه العملية أوحت له بعملية اشتقاق البحور من بعضها بنفس الطريقة أيضا فجعل خمسة أبحر أصول وعشرة أبحر فروع وزّعها على خمس مجموعات كل مجموعة تحيط بدائرة جعل حول محيطها بحرا أصلا يبتدئ في الغالب بوتد، ثم يفك من مفاصل أسبابه وأوتاده المتتالية بحورا مستعملة وأخرى مهملة وهي كالتالي[1]:

دائرة المختلف (الطويل):

تضم الطَوِيلَ: (فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ). ويشتق منه الأبحر التالية:

ـــ المَدِيدُ: (فَاعِلاَتُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلاَتُنْ فَاعِلُنْ)؛

ـــ البَسِيطُ (مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ)؛

دائرة المؤتلف: (الوافر)

تضم الوَافِرَ(مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ) ويشتق منه:

ـــ الكَامِلُ (مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ)

دائرة المجتلب: (الهزج)

تضم الهَزَجَ (مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ) ويشتق منه:

الرَّجَزَ(مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ)؛ الرَّمَلُ(فَاعِلاَتُنْ فَاعِلاَتُنْ فَاعِلاَتُنْ)

دائرة المشتبه (السريع)

تضم السَّرِيعَ (مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولاَتُ) ويشتق منه:

ـــ المُنْسَرِحُ (مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولاَتُ مُسْتَفْعِلُنْ)؛

ـــ الخَفِيفُ(فَاعِلاَتُنْ مُسْتَفْعِ لُنْ فَاعِلاَتُنْ)؛

ـــ المُضَارِعُ (مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن)؛

ـــ المُقْتَضَبُ (مَفْعُولاَتُ مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ)؛

ـــ المُجْتَثُّ (مُسْتَفْعِ لُنْ فَاعِلاَتُنْ فَاعِلاَتُنْ) .

دائرة المتفق:(المتقارب) تضم المُتَقَارِبَ (فَعُولُنْ فَعُولُنْ فَعُولُنْ فَعُولُنْ) ويشتق منه:

مهمل: (فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ) عند الخليل وسمي فيما بعد المُتَدَارَكُ.

وما يلاحظ في هذه الدوائر أن الخليل جعل البحور الأصول كلها يبدأ الجزء الأول فيها بوتد إلا دائرة السريع الذي تبتدئ أجزاؤه بسبب، وقد خالفه بعض العروضيين فجعل المضارع (مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن) 2 أصلا[2] حتى تكون الأجزاء الأصول الأربعة هي منطلق كل دائرة.

السكاكي ونظام الدوائر:

لقد أوحى التبريزي إلى السكاكي (626هـ) فكرة اختصار الدوائر الخمسة للخليل في دائرة سحرية واحدة [3]. وبعزائم العلة والزحاف انبرى ليشتق منها كل البحور حيث جعل الوافر هو الأصل بتقديره مثمنا بتكرار (مُفَاعَلَتُنْ) أربع مرات في كل شطر وفرع منه جميع البحور الباقية وكلها مثمنة غير أنه يستعمل تارة التفعيلة سالمة وتارة يدخل عليها الزحاف ثم يدخل عليها العلة ليتسنى له اشتقاق التفعيلات ذات السبب الخفيف السباعية والخماسية وهذا توضيحها:

أ . التفعيلة (مُفَاعَلَتُنْ) سالمة :

ـــ مُفَاعَلَتُنْ × 8 = الوافر ويشتق منه عَلَتُنْ مَفَا = مُتَفَاعِلُنْ × 8 = الكامل

ب. التفعيلة مفاعلتن مزاحفة: معصوبة أي مفاعَلْتُنْ فتنقلب إلى مفاعيلن ويستخرج منها: ـــ مفاعيلن× 8= الهزج

ـــ عيلن مفا = مستفعلن × 8 = الرجز

ـــ لن مفاعي= فاعلاتن × 8= الرمل.

ج. التفعيلة مفاعلتن مزاحفة معتلة: يدخلها زحاف العضب في كل الأجزاء فتصير مفاعلْتن أي (مفاعيلن) بينما تدخل علة الحذف في نصف أجزائها أي الثاني والرابع والسادس والثامن فتصير مع الزحاف مفاعيلن ومُفَاعَلْ أي فعولن فيستخرج منها:

ـــ (فعولن+ مفاعيلن) × 4 = بحر الطويل.

ـــ لنْ مفاعيلن فعو = فاعلاتن فاعلن× 4= المديد؛

ـــ عيلن فعو لن مفا= مستفعلن فاعلن× 4= البسيط؛

ـــ مفاعيلن+ فعولن= بحر مهجور [4] (مقلوب الطويل)؛ ومنه يستخرج المقتضب كالآتي: فاعيلن فَ +عولنْ مَـــفا + عيلن فعو = مفعولاتُ مستفعلن مستفعلن = المقتضب وقد جعله أصل دائرة المشتبه فمنه يستخرج:

ـــ المجتث: مستفع لن فاعلاتن فاعلاتن.

ـــ السريع: مستفعلن مستفعلن مفعولات؛

ـــ المنسرح = مستفعلن مفعولاتُ مستفعلن؛

ـــ المضارع = مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن؛

هذا رأي السكاكي في كيفية اشتقاق البحور من بعضها قسرا، لتحقيق فكرة التبريزي. ومما يلاحظ أنه جعل أصل كل البحور مثمن الأجزاء، واستعان بالزحافات والعلل، مما يعقد عملية الفك حيث تبدو طريقة الخليل أسهل بكثير منه.

دوائر مصطفى حركات:

ذهب الدكتور مصطفى حركات إلى جعل الدوائر ضعفين أي عشرة حيث أهمل المهمل وأثبت فقط المستعمل من البحور – (استعمل الرموز التالية: س=سبب خفيف؛ سَ=سبب ثقيل؛ و=وتد مجموع؛ وَ=وتد مفروق) – وهذه دوائره:

أ. دائرة الطويل (وس وس س)4، و ينفك منها بحر واحد وهو البسيط (وس وس س) 4 وقد جعل رقم4 وكل الأرقام الباقية أسًا وكان يجب أن يجعلها عاملا .

ب. دائرة الوافر : (و سَ س)6 ينفك منها الكامل (سَ س و) .

ج. دائرة مجزوء الوافر:(و سَ س)4 تحتوي على مجزوء الكامل (سَ س و)4.

د. الرجز التام (س س و)6 و الرمل التام (س وس)6 ينتميان إلى دائرة واحدة .

هـــ. دائرة الهزج : (و س س) 4 تحتوي على الرجز المجزوء(س س و) 4 والرمل المجزوء (س و س)4.

و. دائرة المنسرح التام تحتوي على الخفيف التام .

ز. المتقارب وحده في دائرته .

ح. المتدارك وحده في دائرته .

ط. دائرة المضارع ((وس س) (وَ س س)) 2 تحتوي على المقتضب ((س س وَ) (س س و))2 ، والمجتث ((س وَ س) (س و س)) 2 ومجزوء المنسرح ((س س و) (س س وَ)) 2 ومجزوء الخفيف((س و س) (س وَ س))2 .

ي. دائرة المديد ((س و س)(س و)(س وس)) 2 تحتوي على المجزوء البسيط، والرمل الثاني، والسريع .

ويرى مصطفى حركات أن هذا التصنيف الجديد يظهر دوائر جديدة في العروض علاقتها أقرب بالأوزان المستعملة في شكلها القريب من الواقع فضلا عن الأوزان النظرية.

لا شك أنّ هذه الدوائر العشرة هي أقرب للأوزان المستعملة وهي عندي أحسن من دوائر الخليل غير أنّ الإكثار من الأصول لا يخدم الدرس العروضي ولو كان هدف الدوائر أن تكون أقرب من الأوزان المستعملة لكان من الأحسن جعل ست عشرة دائرة تكون لكل بحر دائرة مضبوطة مطابقة لوزنه المستعمل.

ـــ فائدة الدوائر :

يرى بعض العروضيين أن الدوائر لها فوائد جمة ومن المعاصرين الذين حاولوا إبراز قيمتها الأستاذ مصطفى حركات حيث يرى أن لها ميزتين هما:

1. بفضلها يظهر لنا أن أوزان الشعر العربي لم تبرز بطريقة عشوائية إلى الوجود بل هي داخلة في نظام عامّ هو النظام الدائريّ.

2. كونها طريقة تعليمية تجذب لمعرفة الأوزان تغني ((عن الحفظ وتمكننا من استنتاج أوزان البحور وتذكرها في حالة النسيان))[5].

نقد نظام الدوائر :

ـــ إن الميزة الأولى التي ذكرها مصطفى حركات توحي بأن العرب لما بدأوا بقول الشعر لم يبدعوا الأوزان بطريقة عشوائية، بل كان نظام الدائرة باشتقاق البحور من بعضها بعضا حاضرا في أذهانهم، وهذا أمر لا دليل عليه لأنه يفترض أن الأجزاء كانت موجودة ومعروفة لدى الشعراء وأن الخليل ليس هو مبتدع، ومؤسس علم العروض و لم يقل بهذا أحد[6] ؛

ـــ أما الميزة الثانية فليست صحيحة لأنه لا يمكن بأي حال الاستفادة من الدوائر إلا بمعرفة الأجزاء أولا ثم البحور. ولا يمكن لأي شخص يجهل البحور أن يشتق البحور ويعرف منها المستعمل والمهمل ويحدد أسماءها التي وضعها الخليل.

إن نظام الدوائر الذي أبدعه الخليل- وإن كان يدل على عبقريته- فإنه تعرض للنقد منذ شيوع علمه حيث قال فيه النظّام أستاذ الجاحظ ((فتنته دوائره التي لا يحتاج إليها غيره))[7] ، وذهب أحد المحدثين وهو العياشي إلى نفس رأي بقوله أن ((وضع الدوائر الخمسة عمل زائد، ضرره أكثر من نفعه))[8] حيث يمكن لاستغناء عنها .

ويمكن أن نقول بصراحة أن نظام الدوائر جنى على الدرس العروضي من عدة جوانب نجملها في ما يلي:

ـــ أثقل الدرس العروضي ببحور مهملة (ستة أبحر) لا أثر لها في الواقع الشعري؛

ـــ أثقل الدرس العروضي بأوزان نظرية تختلف قليلا عما هو موجود في الواقع الشعري فعوض أن يباشر الدّارس أجزاء البحر المستعملة يفرض عليه أن يبدأ بالوزن النظريّ الذي يختلف في بعض الأحيان عن الوزن المستعمل سواء من ناحية شكل الأجزاء أم من حيث عددها في الشطر ولا يخفى ما ينتج عن هذا من تبعات تثقل الدرس العروضي وتعقده بحيث يستوجب اعتبار العروض الأولى في البحر إما معتلة، ومزاحفة وإما مجزوءة قياسا بأصل وهميّ للبحر غير موجود في الواقع مثل :

ـــ السريع أجزاؤه النظرية: (مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولاَتُ) 2 والغريب في هذا أن مفعولاتُ في الضرب لا تكون سباعية أبدا لأجل أن العرب لا تقف في آخر البيت على متحرك بل تشبع الحرف الأخير سواء كان حرف الروي أو هاء الوصل فتكون إذا نظريا على وزن مفعولاتن ثمانية، ويضاف إلى هذا كون أجزائه المستعملة في الواقع هي :مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ

ـــ الهزج فهو نظريا بحر تام وزنه :(مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ) 2 ووزنه المستعمل بالقياس إلى النظريّ مجزوء : مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ

ويقاس على الهزج المضارع و المقتضب و المجتث و المديد ؛

ـــ أوجب نظام الدائرة تبويبا خاصا لدرس البحور حيث التزم العروضيون بهذه الدوائر في ترتيب البحور داخلها فبدأواْ أولا بدائرة المختلف فدرسوا الطويل والمديد والبسيط، ثم دائرة المؤتلف فدرسوا الوافر والكامل ثم دائرة المجتلب فتعرضوا للهزج والرمل فالرجز ثم

دائرة المشتبه فتعرضوا للسريع والمنسرح والمقتضب والمضارع والمجتث وأخيرا دائرة المتفق فتعرضوا للمتقارب وأضافوا له المتدارك، والغريب أن الكثير من المحدثين والمجددين وعلى رأسهم مصطفى حركات يتبعون هذا الترتيب في تآليفهم ودروسهم.

إن دراسة البحور على هذا الترتيب ليس من الناحية التعليمية بمفيد حيث يواجَه الدارس أول ما يواجَه ببحور مركبة كالطويل، والمديد، والبسيط، وتترك في الأخير البحور الصافية البسيطة كالمتقارب أو الهزج، والرجز، والرمل، و لم يتفطن إلى هذا من القدماء إلا الأمين المحلي (تـــ 673هـــ) الذي بدأ بدائرة المتّفق ثم المجتلب، ثم دائرة المؤتلف، ثم المختلف، وأخيرا دائرة المشتبه[9] .

ـــ افتعال بحر منفرد، وهو السريع لجعله على رأس دائرة مع تغيير جزئه الأخير من كل شطر، وكان الأحسن دمجه في الرجز. فقد جعل الخليل فاعلن منتزعة من مفعولات، وكان بالإمكان اشتقاقها من مستفعلن، وهذا جدول حاولت فيه أن أردّ مختلف الأضرب والأعاريض المستعملة في السريع إلى الجزء مستفعلن في الرجز:

أَضرب السريع وأعاريضه	**زحاف وعلة مَفْعُولاَتُ عند الخليل**	**زحاف وعلة مُسْتَفْعِلُنْ عندنا**
فَاعِلُنْ	الطيّ والكسف	الطّيّ و القطع
مَفْعُولاَنْ	الوقف	القطع والتذييل[10]

فَاعِلاَنْ	الطيّ والوقف	الطّيّ والقطع والتذييل[11]
مَفْعُولُنْ	الكسف	القطع
فِعْلُنْ	الصّلم	الحذذ
فَعِلُنْ	الخبل والكسف	الخبل وفالقطع

وبهذا يسقط بحر السريع و يدمج بسهولة في بحر الرجز، وقد فعله عمليا أصحاب المنظومات العلمية في القديم في أرجوزاتهم. وما يلاحظ في بحور الخليل هو أنها كلها يمكن أن تعرف بالجزءين الأولين إلا الرجز والسريع لتطابقهما في الجزء الثاني من كل شطر، وهذا ما يدعم مذهبنا في دمجهما في بحر واحد.

وفي الأخير إن الاستغناء عن الدوائر ييسط الدرس عروضي ، ويجعله أكثر مطابقة للواقع الشعري فعوض أن يحدد الهزج مثلا بأن أجزاءه (مفاعيلن) ثلاث مرات في كل شطر وله عروض واحدة مجزوءة صحيحة نحدده بأن عروضه أجزاؤها مفاعيلن مرتين في كل شطر وكذلك مع السريع فتحديده بأن أجزاءه (مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولاَتُ) في كل شطر وله وعروضه الأولى مطوية مكسوفة أو مكشوفة ولها ضرب مثها، نقول باختصار أن أجزاءه (مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلنْ) في كل شطر نتخلص من الطي و الكسف أو الكشف. وإن اعتبرناه رجزا فنجعل أضربه مطوية ومقطوعة ومذيلة أومحذوذة أو مخبولة ونتخلص من بحر السريع تماما.